

رواية اللاز للظاهر وطار أو المسكوت عنه في تاريخ الثورة
The novel of laz or the silent about it in the history of the
revolution



أ. بومدين صالح
(جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة)

Email : salahboumediene21@gmail.com

المخلص

التاريخ سرد أحداث وقعت في فترة زمنية محددة وفق ثقافة مهيمنة تروم إظهار حقائق و السكوت عن أخرى، وغالبا ما يجد الإنسان نفسه أمام هذا السكوت والغموض الذي تخفيه المصادر و النصوص التاريخية مدفوعا إلى البحث عن مصادر أخرى من خارج إطار الكتابة التاريخية ومن هنا تأتي أهمية الرواية، فالرواية تاريخ لأنها تقول مالا يقوله وتفصح عبر قدرتها السردية عمل المؤرخ .

تروم هذه المقاربة إلى البحث في علاقة الرواية بالتاريخ وكيفية تعامل الروائي مع الأحداث التاريخية، فالتخييل سواء في علاقته بالذات أو بغيرها، هو تلك المساحة المتمردة بلباقة عن الحقيقة التاريخية المحكومة بسلطة التحفظ وحساب المنفعة. ضمن هذا السياق يقدم الروائي "الظاهر وطار" قراءة مغايرة للتاريخ السائد بغية خلخلة المكرس و المهيمن، فالتمحيص و التدقيق لبلوغ الحقيقة المختلف حولها ليس بالضرورة عملا مغرضا.

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية - التاريخ - التخييل - الجمالي - الموضوعاتية

Abstract

History lists events over a given period according to the dominant culture intended either to show the facts and the silence of others, and often the finds itself before this silence and mystery hide the historical sources and texts are pushed to seek out, Other sources of history outside, hence the importance of the novel, the historical novel because they say what you do not say and profess their work through the narrative historian. This approach is meant either to look for the new story relationship and how a novelist with historical events, imagine whether in relation to oneself or others, is that space tactfully rejects historical truth governed by power Utility account and booking.

Keywords : novel - History - Revolution - ideology - identity.

المقدمة:

إن الكثير مما كتب حول تاريخ الثورة التحريرية ينبغي ألا يؤخذ مأخذ التسليم، وإنما ينبغي أن نتقبله بشيء من الشك الذي قد يدفعنا إلى التصديق الكامل له أو النفي الكلي لهذا الحضور، فالحاضر يستعيد الماضي ليخضعه للمساءلة، وانه ليس هناك يقين إلا إذا سبقه نوع من الشك، فالشك ليس دليل انحراف بقدر ما هو علامة عافية.

فبين التواطؤ على طي الخلافات السياسية أثناء الثورة التحريرية، وما انجر عنها من أخطاء و انحرافات أدت في كثير من الأحيان إلى التناحر بين أبناء الوطن الواحد، والإصرار على تعرية ذلك الواقع انحاز الروائي الطاهر وطار إلى الخيار الثاني على الرغم من أخطاره و تبعاته.

وعندما يعاود الروائي النظر في تاريخ الثورة بما انطوى عليه وعيه الجديد، فانه يخرج من الوثوقية إلى النسبية بفعل هامش الحرية واتساع التخيل الروائي، ولذلك فان الصورة التي انتهى إليها بعد جهد و عناء هي صورة تنكر الكثير مما استقر في أذهان كثير من الناس عن تاريخ الثورة.

1. الروائي والتاريخ:

هيمنت المرجعية التاريخية على الخطاب الروائي الجزائري مطلع السبعينيات وما تلاها، حيث تزامن انبلاج فجر الاستقلال مع نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، فكان من الطبيعي أن يعكس الخطاب الروائي ظروف المرحلة الجديدة، فلم يقف عند حدود تقديس الماضي والتغني ببطولاته وأمجاده وملاحمه، ولكنه حاول أن يرسم ملامح العهد الجديد في تحولاته المتأزمة وما رافق ذلك من حلم في التغيير، فكل مرحلة تاريخية تنتج نمطها الروائي خطابا ومحتوى وتسمه بميسمها، ولم يشكل الطاهر وطار استثناء في هذا المشهد الجديد ففي رواية "اللاز" يقتحم الروائي

الطاهر وطار أسوار التاريخ ويغور في دهاليزه فينبش في الماضي القريب للثورة لأنه رأى من منظور المعاش للأحداث أننا تناسيناها، أو أننا لم نستطع الوفاء لمبادئها التي قامت عليها، فهو يستدعي خطاب التاريخ الماضي لإنشاء خطاب الرواية الراهن. ومن هنا فإنه كان يقصد إلى تأسيس خطاب تاريخي مبني على تفسيرات مقنعة انطلاقاً من حاضر الإنسان الذي تشكل عبر سيرورة تاريخية مترابطة.

وإذ ترتبط الرواية بالتاريخ فإنها تسعى بشكل من الأشكال إلى تشكيل العناصر والأحداث التاريخية وفق منظور مغاير للسائد من خلال توظيف الشرط الفني «فقد ظهر للروائيين أن ما يتيحه الفن للروائي أكبر مما يتيحه الاهتمام في الوثائق للمؤرخ، فبدأ الروائيون يوظفون حرية الإبداع لتوسيع بنيات التاريخ وإشباعها اجتماعياً وتتبع الأحداث بطريقة فنية متاحة للمبدع وعصية على المؤرخ». (عبد السلام، 2010، ص 144)

ورغم التمايز الذي ينبغي التسليم به بين الرواية والتاريخ إلا أن ذلك لا ينفي وجود نقاط تماس بين الخطابين حتى ليدو أن الطبيعة السردية لكليهما منبثقة من هوية واحدة وذات أصل مشترك.

ويبدو التاريخ لدى المدافعين عنه علماً موضوعياً مبرأ من الأهواء والمصالح له أسانيده ووثائقه والجهود المتعددة التي أنجزت مناهجه، لكن هذا المنظور قد يتهاوى لأن التاريخ علم سلطوي، ينتج عن مؤسسات سلطوية ثم إنه مرتبط دوماً بمنعصر ومنهزم، والمنعصر هو الذي يسهم في صنعه وقولته كما يشاء، فكيف يمكن التحقق من صدق الأحداث التاريخية وهي التي ما سجلت إلا بأقلام مؤرخي وكتاب الطبقات المنتصرة، فأين وجهة نظر المغلوبين؟ وكيف يمكن تصديق الصفات المثالية

التي أسبغت على الأبطال والقادة وإغماض الأعين عما أحقوه بعدوهم من ظلم و قهر وتنكيل؟

ورغم ذلك يبقى «التاريخ في صورته الموضوعية عين على العالم، فيه رصد لما يجري من حركات وتقلبات غير أن ذلك يحتاج إلى مؤرخ متجرد يجتهد في نقل الواقع كما هو.... أما تغييب عناصر السلب من التاريخ فهو إسقاط لجزء من الحقيقة» (عبد السلام، 2010، ص 59)

يتعارض التاريخ الذي يفرضه الخطاب الرسمي دوما مع الذاكرة، لذلك كان لا بد من تمزيق العرض الرسمي السائد عن طريق أعمال أخرى تتجنب في صياغتها السردية مظاهر التقديس الزائفة التي تتمسك بها السلطة لتتطابق مع الذاكرة. ولعلّ هذا الذي دفع الروائي الطاهر وطار إلى إعادة قراءة هذه الفترة الحرجة من تاريخ الثورة التحريرية ويركز «على كل السلبات التي صاحبت هذه الأحداث وهي سلبات ليست في النهاية إلا الوجه الآخر للتناقض الطبيعي الذي يحدث في أية ثورة وطنية بما أنها تضم فئات بشرية غير منسجمة طبقيا بشكل كامل وإن كان يجمعها بشكل ما هدف واحد هو الاستقلال» (واسيني، 1989، ص 37) من المؤكد أن التراجع عن المبادئ التي قامت على أساسها الثورة، والتدمير القيمي والأخلاقي الذي رافق مرحلة الاستقلال، وتهافت الثوار على اقتسام الريع، والتنافس على شغل المناصب هو الذي جعل الروائي يعود إلى الماضي بوعي جديد، بإدراك مختلف لتاريخه، اعني إدراكا يجرؤ على أن يخالف الثوابت والمعايير التي يحسبها الآخرون ثوابت مقدسة، وقد عاش الروائي منطويا على نوع من الثورة الأبدية يجسدها قوله: «أنا رجل عقلائي لا أعرف المجاملة ، صادق مع نفسي ومع الآخرين، أضحى دائما لدرجة نكران الذات وكيساري أحمل الفكر الثوري العملي الواعي ومواقفي لا تنساق مع كل الناس أنا رجل لي فكري وانتماءاتي الفكرية، لا

أتبنى شعارات الآخرين، وأيضا انتقد كثيرا من يزعمون أنهم يساريون عربا و هم ليسوا كذلك، يباهون بالثورة و لا يقومون بأي فعل ثوري» (حسين، 2014 ص52)

لقد عاش الروائي يحمل هم هذه الثورة فهي دائمة الحضور في حياته، عند كل مرحلة - زمانا ومكانا - يعيشها يقظة أو ذكريات أو تخيلات فهي تملأ عليه حياته و تستغرق تفكيره و شعوره فهي على حد تعبير "البير كامي": «شعور لا يمكن التخلص منه إذا تمكن من إنسان ما و عاش في أعماقه.» (البير، 1968 ص 24) ورغم التشابه الذي يظل قائما بين الروائي والمؤرخ من حيث كونهما شاهدين على أحداث تاريخية «فإن الرواية وهي تؤرخ للحاضر وتنتج معرفة تاريخية بالماضي لا تستر كما يفعل المؤرخون عورة التاريخ، إنها تسعى لكشفه وتعريه زيفه ومناطقه المظلمة منطقة قدر استطاعتها ما سكت عنه التاريخ بسوء نية» (تأليف جماعي، 2014، ص216). فالرواية تحافظ دوما على حريتها واستقلالها في نظرتها للتاريخ بعيدا عن إكراهات السلطة وإغراءاتها وانطلاقا من ذلك فإن الكاتب يريد إن يبحث عن الحقيقة المتوارية خلف التاريخ الرسمي من خلال المتخيل الروائي القادر على ملأ الفراغات التي يتركها التاريخ وهو «لا يتمكن دائما من قول ما يريده مباشرة، خصوصا إذا كان هذا القول يمس وضعاً قائماً تحرص السلطة على ألا يمس» (سامية، 2005، ص68)؛

فإذا كان المؤرخ يكتب تاريخا نفعيا ولا يتقصى الحقيقة ويأتي على ذكر تاريخ السلطة ويترك تاريخ المستضعفين والمهمشين جانبا فإن «الروائي يقوم بتصحيح ما جاء به المؤرخ ويذكر ما امتنع عن قوله». (فيصل، 2004، ص06) فماذا أرادت "اللاز" تصحيحه وقوله؟.

افتح الكاتب روايته بمقدمة يبين من خلالها الأسباب التي دفعته لإنجاز عمله هذا ومن جملة ما ورد فيها «إنني لست مؤرخا ولا يعني أبدا أنني أقدمت على عمل يمت بصلة كبيرة إلى التاريخ رغم أن بعض الأحداث المروية وقعت أو وقع ما يشبهها... إنني قاص، وقفت من زاوية معينة لألقي نظرة بوسيلتي الخاصة - على حقبة من حقب ثورتنا». (وطار ، 1981، ص08)

إن المدقق في هذا التقديم يرى كأن الكاتب يريد أن يدفع عن نفسه قفمة أو يدرأ عن نفسه خطرا محققا بسبب ما تضمنته روايته من تعرية لواقع أريد له أن يبقى قابعا داخل منطقة اللاشعور، فحين ينفي الكاتب عن نفسه صفة المؤرخ، فإنما يريد أن يظل السلطة والرقابة في مجتمع لا يسمح بتعدد الأصوات.

2. استدعاء الحدث التاريخي:

يغلب على الظن أن الكاتب قد باشر كتابة نصه بعد تراكم الخلافات داخل صفوف حزب جبهة التحرير الوطني غداة الاستقلال، وهي الفترة التي طبعتها الخلافات الإيديولوجية وما نشأ عنها من صراع على السلطة ويوضح الكاتب أبرز ملامح هذه الفترة بقوله: «كتبت الرواية في ظروف صعبة جدا بين 1965م و1972م أي على إثر انقلاب 1965 الذي لم تبرز هويته منذ البداية، فظهرت حركة ارتداد عن الاشتراكية وأصبح الشيوعي يخاف على نفسه، ومع ذلك كتبت بحماس وإصرار واستنسخت من الرواية ثلاث نسخ واحدة عندي، وواحدة في مكان آمن وواحدة لصديق، وعندما صدرت بقيت شهرا كاملا وأنا أنام بثيابي خوفا من مداممة بيتي وحلمي إلى السجن، ولكن ذلك لم يحدث واقفنت السلطة بأنها تؤسس الدولة، ونحن الأدباء تؤسس تقاليد أدبية وثقافية جيدة وواعية ومغيرة» (بن رجب ، 1984، ص 25)

وثمة إشارات في رواية "اللاز" تشير إلى أن أحداث الرواية وقعت سنة 1958، أي بعد مرور أربع سنوات على قيام ثورة التحرير وبعد سنتين من انخراط «زيدان» - الشخصية الرئيسية في الرواية - في هذه الثورة.

كان زيدان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري منذ ستة عشر عاما، وقد انخرط في الثورة دون أن يستشير حزبه ودون أن يدفع الاشتراكات الحزبية المقررة عليه لسنتين كاملتين وعلى الرغم من ذلك لم ينسلك عن الحزب فما زال يحمل مبادئه وعقيدته كما هو واضح من استخدامه لألفاظ موحية بذلك مثل «الرفيق» عوضا عن "الأخ" ومن لقب "أحمر" الذي عرف به بين المجاهدين وهو يبدو في الرواية مثالا للإخلاص للثورة، واعيا، مثقفا ذو تجارب في الحياة والعمل السياسي المنظم «فهو الشخصية الوحيدة التي استطاعت أن تطرح قضية الثورة الوطنية بشكل صحيح وعلمي» (الأعرج، 1989، ص 42)

وهو لا يرى بأسا في المحافظة على عقيدته الحزبية مع بقاء انتمائه للثورة وإخلاصه لها، فالمهم في رأيه هو تحقيق الاستقلال يقول في إحدى منولوجاته: «يوم التحقت بالثورة، لم أستشر أحدا. لا الحزب ولا غيره، رغم أنني عضو اللجنة المركزية، أوجبت الظروف المحيطة بي ذلك ففعلت، وإذا ما سئلت، هل انسلخت من حزبي فسأجيب فورا بالنفي، وإذا ما طلب مني ذلك، فسأظل أسأل عن الدوافع... لن أنسلك، ولن أدفع الاشتراك،... وسأظل أكافح من أجل الاستقلال الوطني» (وطار، 1981، ص 203)

غير أن خلافات دبت في رأس هرم قيادة الثورة جعلتها تدعو إلى حل جميع الأحزاب المنضوية تحت لوائها وانصهارها جميعا في جبهة واحدة، وهي الدعوة التي لم تستجب لها كل القوى الثورية وخاصة الحزب الشيوعي الجزائري

الذي يظهر في حديث زيدان مع الشيخ مسعود: «لقد اضطرتكم خلافاتكم مع قيادة حزبكم إلى تكوين حزب جديد على حساب جميع الأحزاب وعلى غرار حزبكم المنهار أيضا، الكفاح المسلح الذي توفرت شروطه فاندلع شيء، واستغلال هذا الكفاح لتكوين حزب وحل جميع الأحزاب الأخرى شيء آخر» (وطار، 1981، ص 224) وعلى الرغم من إخلاص "زيدان للثورة وتفانيه في عمله، فإنه بقي وفيًا لمبادئه الشيوعية، ولهذا رفع الشيخ "مسعود" تقريراً إلى القيادة يطلب رأيها في قضية "زيدان".

وبين إرسال التقرير واستقبال الجواب يسرد الروائي حياة زيدان عندما كان في ريعان الشباب حيث قتل قائد الدوار فقام الاستعمار بتدمير القرية، وهرب زيدان مع مريانة إلى الغابة أين تزوجها زواجا غير شرعي ثم قبض عليه وسيق إلى الخدمة الإجبارية وعند تسريحه لم يجد "مريانة" ولا عملاً يقتات منه فعاد ثانية إلى "باريس" وهناك تعرف على الرفيقة "سوزان" التي هيأت له سبل العلم حيث دفعته للالتحاق ببعض المدارس الفرنسية

الشعبية التي تقدم الدروس للكبار بعد الانتهاء من عمل النهار، ولعل هذا النوع من الثقافة الضحلة هو الذي كان وراء تكوين شخصيته السياسية ولذلك سهل على "سوزان" التأثير عليه وعلى معتقداته وتوجيهه الوجهة التي تريد، ولما كانت "سوزان" شيوعية لم يتردد زيدان لكثرة أفضالها عليه أن يعتنق مذهبها السياسي ثم يسافر معها إلى روسيا بعد ذلك، ثم تنشب الحرب العالمية الثانية فيعود "زيدان" إلى الجزائر، وبعدها بسنوات يلتحق بالثورة التحريرية.

تنجب "مريانة" من زيدان أثناء وجودهما في الغابة معا ابنا غير شرعي عرف بين الناس باسم "اللاز" وقد نشأ هذا الطفل على مشاكسة الناس حتى بات منبوذا من الكل، غير أنه يحب زيدان لأنه يعطف عليه، وبعد علاقات مشبوهة

يقيمها "اللاز" مع جنود الاحتلال ينخرط في صفوف الثورة وينجح في تهريب الجنود الجزائريين المتطوعين في الجيش الفرنسي...

وأخيرا يأتي جواب القيادة إلى الشيخ بضرورة تنازل زيدان كتابيا عن حزب، فيستدعيه الشيخ ويلغعه جواب القيادة فيرفض ذلك الأمر أربعة متطوعين فرنسيين وخامس إسباني.

فيضطر الشيخ "مسعود" لتنفيذ أمر القيادة بذبحهم جميعا واحدا تلو الآخر بعد أن رفض طلبهم في الحصول على محاكمة عادلة كما رفض طلب "زيدان" الإنساني الخاص بإبعاد ابنه "اللاز" عن رؤية عملية الذبح مما يجعل اللاز يفقد عقله ويهذي بالمثل الشعبي «ما يبقى في الواد غير حجاره» الذي تحتتم به أحداث الرواية.

3. بين موضوعية التاريخ و سطوة الأيديولوجيا:

حاول الطاهر وطار من خلال كتاباته أن يستوعب قضايا المجتمع. بمختلف تعقيداتها مستمدا رؤيته الإبداعية من واقع مجتمعي متناقص تحكمه المفارقات من انحلال خلقي مباد وتشبث بالدين إلى حد يصل إلى درجة التطرف، و بين الوفاء و الخيانة، و الجهل و الوعي و كل تلك التناقضات التي يموج بها الواقع الجزائري المثقل بالطابوهات و الصراعات.

في هذا المناخ الهادر من التناقضات قد الروائي قراءة لواقعه بوصفه روائي فاعل و مشارك في صنع خيوط اليومي، منخرط في النضال بشكل دائم، و ذلك انطلاقا من الوعي الجديد الذي تشكل لديه إثر الصدمات و التغييرات المتسارعة التي أفرزها واقع ما بعد الاستقلال.

يستحضر الروائي الثورة التحريرية باعتماد تقنية الاسترجاع لأن اللحظة الحاضرة لا تُقرأ إلا في ضوء ماضيها الذي يضل حاضرا فيها. «فقد كان الارتداد إلى الماضي في أعمال "وطار" مرتكزا دائما للموازنة و النقد فضلا عن كونه حيلة فنية لتكسير التسلسل الواقعي لزمن الحكاية الأصلية. « (مخلوف، 1999، ص 312) لقد شكلت الممارسات و الصراعات الخفية وسط مناضلي جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة نقطة ارتكاز للكشف عن قلق الراهن واختلالاته، فالتاريخ « إنما هو حركة واقع موضوعي مرتبط بعلاقة حية مع الحاضر. « (بوشوشة، 1996، ص 73) يستند الروائي في تعامله مع أحداث التاريخ إلى مبدأ الاختيار الذي يكون فيه مدفوعا برغبة فنية جامحة، لأنه لا يكتب التاريخ كما يفعل المؤرخ ولا يعيد ما هو مكتوب سلفا، وإنما يكتب الرواية باستثمار أحداث ووقائع تاريخية فيبحث عن أوجه المشابهة والتطابق بين تاريخه الذي يحياه والتاريخ الماضي قريبا كان أم بعيدا، ويختلف مبدأ اختيار اللجوء إلى التاريخ باعتباره أرشيفا مفتوحا حسب المعطيات الفكرية والثقافية والسياسية ورؤية الروائي، وقد اختار الكاتب هذه المرحلة من تاريخ الثورة استجابة لمعطى إيديولوجي بحت يظهر في قوله: «إن الصراع في "اللاز" كان بين يمين يستخدم الدين وبين يسار، بين وطنيين ذوي أحكام مسبقة وبين يسار وطني، بين الاستعمار والثوار على الصعيد العام وبين الثوار والثوار داخل الحركة الواحدة، كان هناك هذا المفهوم الوطني الضيق الذي يختزن أحكاما مسبقة على الشيوعيين فرفضهم إطلاقا رغم معاداتهم للاستعمار». (بوشوشة، 1999، ص 328)

من أجل الإجابة عن أسئلة الراهن وتناقضاته اختار الروائي تفكيك لحظات محددة في التاريخ الوطني بغية تحريره من السياق والنوايا والتأويلات ووصله بتأويلاته التي تهم الحاضر والمستقبل بالأساس، فالرواية أعادت النظر في تاريخ الثورة

الجزائرية زمن حرب التحرير ولم تطمئن إلى التاريخ الرسمي، بل عمدت إلى الكشف عن بعض انحرافات المسار الثوري وأخطائه «فقد أعاد الطاهر وطار بناء الواقع من جديد ووضعا بعد ذلك

أمام الحكم التاريخي لنشير بأصبع الخيانة في النهاية إلى "الشيخ" لا إلى "زيدان" فأظهر مقابل ذلك الخيانات التي مارستها بعض التنظيمات الدينية المتزمتة التي سقطت تاريخيا طعما سهلا في أيدي الامبريالية». (الأعرج ، 1990 ، ص 26)
إنّ التاريخ الذي كتب عن هذه المرحلة هو التاريخ الرسمي - أو تاريخ السلطة - والكاتب من جهته اجتهد في تفكيك عناصره وإعادة بنائها من جديد. بما يتسق مع رؤيته وقناعاته «لأن الرواية بدورها جنس تعبري يبحث عن أفق مختلف يترع نحو خلخلة المكرس والمعطى والرسمي والمألوف وكل هذا لا يتأتى إلا بالمزيد من البحث والمغامرة ونزع القدسية عن تاريخ ترسبت بداخله كل التصدعات والهزائم والأكاذيب». (شعيب، 2005، ص 234)

لقد كان استرجاع الكاتب للماضي استرجاعا واعيا للذاكرة وحوارا خصبا مع تاريخ قيد التشكل في مواجهة واقع الإحباط والتشتت والاختلاف الذي يطبع الحاضر.

تبدو خيبة أمل الكاتب فيما آل إليه وضع البلاد غداة الاستقلال كبيرة، ولذلك قفل راجعا إلى التاريخ يستنطقه: «فإن أي فهم للماضي يمكن من خلاله استشراف آفاق المستقبل لأن ذلك الفهم ينطلق في حقيقته من الواقع الذي هو في علاقات متبادلة مع الماضي والمستقبل». (أحمد، 2001، ص 21).

إذا كان توظيف التاريخ في الرواية يقوم على مبدأ الاختيار فإن هذا الاختبار من شأنه أن يفصح عن بعد أيديولوجي وبصورة عامة فالتاريخ في الرواية

لا يمكن استعراضه كأرشيف في الصورة التقريرية التي يتناولها المؤرخ، وإنما هو اشتغال للروائي على التاريخ يقتضي تعصير الماضي بإضفاء رؤية الكاتب على مجمل العناصر التاريخية التي يختارها لخلق تشكيل خاص يراعي الشرط الجمالي وهذا ما يمكن تلمسه من خلال اشتغال الكاتب على التاريخ في رواية "اللاز".

ينهج "وطار" في رواية "اللاز" نفس المسار الأيديولوجي الذي جسده أعماله السابقة كما اللاحقة، فالرؤية الاشتراكية استمرت تفرض حضورها لديه، فالرواية وإن رصدت مرحلة من مراحل الثورة التحريرية، فقد انفتحت على الواقع الجزائري في فترة السبعينيات، وحاولت أن تحلل الحاضر في ضوء الماضي وفق رؤية أيديولوجية حاول الكاتب عن طريق الرمز حيناً والتقرير حيناً آخر ضبط مسارها وتحليل الوقائع من خلالها، "فاللاز" تحاول أن تقول حاضرها وماضيها، أن تعيد بناء تاريخها الذي هو تاريخ الثورة - وهي في غمرة البحث عن طريقها الصحيح - وعليه فالماضي في هذه الرواية وإن كان يمثل تاريخ الجزائر بكل خلفياته وأبعاده وتناقضاته فهو لا يقدم على أنه غاية في حد ذاته بل يقدم ليكون امتداداً للحاضر أو لتفسير المأزق الذي تعيشه السلطة في راهنها المتشعب «فالماضي كما يبدو في أحداث الرواية محور ظاهرياً من الناحية الزمنية في مرحلة الثورة التحريرية وهي الفترة التي تكونت فيها مقومات الشخصيات وتحددت قدراتها وفق هذا الماضي الذي تحاول اليوم عبثاً تجاوزه، غير أن فهم الرواية ينبغي أن يكون على أن استعادة هذا الماضي هو من أجل إثارة الأسئلة المستحيلة التي كانت أجوبتها إلى وقت قريب ميسورة، فالكاتب لا يؤرخ وإنما يحاول استكشاف أساس لقراءة الواقع الراهن والاحتمالات المستقبلية التي تشير إليها» (عمار، 1993، ص 201).

وفي حدود رؤية الكاتب الاشتراكية يبدو من البداية التعاطف مع الفئات والطبقات المسحوقة، فالشيخ «الربيعي» وهو شخصية ثانوية في الرواية كان لديه

الوعي اللازم لإدراك حقيقة الأوضاع السلبية التي قادت إليها سلسلة الانحرافات عن المسار الذي قامت على أساسه الثورة التحريرية ضد الاستعمار، ولذلك فإننا نجد أنه يتحسر عما آل إليه وضعه ووضع أمثاله من عائلات الشهداء: «إننا كما عرفنا أنفسنا منذ خلقنا، الشيشان على رؤوسنا تكاد تقطر وسخا، البرانس مهلهلة، رثة، متداعية، والأحذية مجرد قطع من الجلد أو المطاط، تشدها أسلاك صدئة والأوجه زرقاء جافة، ليس لنا من الماضي إلا المآسي وليس لنا من الحاضر إلا الانتظار، وليس لنا من المستقبل إلا الموت...» (وطار، 1981، ص 10)

فخطاب الشيخ "الربيعي" يحيل إلى كل التضحيات التي بذلتها الطبقة المسحوقة، والواقع أن أغلب فئات الشعب الجزائري في الحقبة الاستعمارية أو ما بعدها ينتمي إلى هذه الطبقة.

ويبدو جليا أن الكاتب يريد تعقب المسار التاريخي وما ميز فترة الاستقلال على مستوى التحولات السياسية وما كان لهذه التحولات من تأثيرات سلبية ومن خيبات بالنسبة لتطلعات الشعب الجزائري، لكي يتضح من وجهة النظر هذه أن الطبقات الكادحة بالأخص قد انطلت عليها الحيلة فأنخدعت بالخطاب الحالم للسلطة مرحلة الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضي، إذ في نهاية المطاف حققت الطبقة الحاكمة كل أحلامها البرجوازية وبقي الفقراء من هذا الشعب أسرى لأوضاعهم، فشيء طبيعي إذا أن يحتقر الشيخ "الربيعي" نفسه وهو يعيش وضعاً لا يجسد عليه فهناك كما هو واضح تحليل معمق للتاريخ الذي يؤشر لمرحلة الثورة وفجر الاستقلال دون أن يخل هذا التحليل بالشرط الفني الذي تحقق في الرواية إلى حد بعيد.

لا شك أن الكاتب حاول في حدود قدراته الفنية أن يجعل من «زيدان» شخصية محورية رمزا للجزائر وتاريخها ككل مشكلا صورته بما يتفق مع قناعاته وتوجهاته الأيديولوجية لذلك فهو يبدو في مرحلة الثورة في صف الفئات الشعبية مدافعا عن قيم الثورة ووحدة صفوفها، كما أنه لا يفتأ يفكر في مستقبل هذه الأمة الذي يحمل همه من الآن: «هذه الحركة ينبغي أن تتبنى الصراع الطبقي من الآن، وإلا بقيت مجرد حركة تحرر الخطر كل الخطر أن يحولها الاستعمار إلى صالحه فيعلن عن انتهائها، ليخلف الوطن بين أيدي العملاء».

(وطار، 1981، ص 162)

وانطلاقا من هذه الرؤية المستمدة من أسس أيديولوجية واضحة ثم تشريح الراهن والحكم عليه انطلاقا من خلفياته وحقائقه التاريخية، حيث يبدو أن ما تنبأ به «زيدان» قد حدث فعلا فقد فشل المشروع الوطني الذي كان هدفه على مراحل خدمة الطبقات الشعبية الفقيرة، وفي فترة وجيزة بعد الاستقلال اتسعت الهوة بين الطبقات واعترى الخلل البنية الاجتماعية والاقتصادية في الصميم فأدى إلى انتشار الفقر بشكل واسع كما اثمار سلم القيم واستطاع بعض الخونة والوصوليون أن يتبوءوا مناصب عليا في الجهاز الإداري، «فالريعي» والد الشهيد "قدور" يفاجأ وهو يتقدم إلى مكتب البريد لاستلام منحة ولده الشهيد «في البدء، لم أكن أطيق النظر إلى هذا الشاب الخائن. لكن ها إنني أعوده شيئا فشيئا. الدوام يثقب الرخام». (وطار، 1981، ص 275)

والواقع أن الرؤية الاشتراكية قد دفعت الكاتب إلى إعادة النظر في التاريخ فهو يرى أن الطبقة البرجوازية التي يمثلها على المستوى الرمزي «الشيخ مسعود» لم تكن يوما حليفة للثورة، فالثورة الجزائرية بهذا المفهوم قد ولدت من رحم نضالات الكادحين من أمثال «زيدان» و «اللاز» و «حمو» فهم الذين كانوا وقودها ومن

هنا فلا شرعية نضالية لتلك الطبقات التي ارتبطت مصالحها بالوجود الكولونيالي فسلالة الإقطاع مثلما شكلت خطرا في الماضي من خلال تحالفها مع المستعمر هي سبب كل الأزمات التي آل إليها الوضع في مرحلة الاستقلال.

ومن المفارقات الطريفة في رواية «اللاز» إن السارد نفسه كان طرفا في أحداثها، بحيث تبدو و كأنها سيرة ذاتية مقنعة، فكثيرا ما يبدو لنا القص ضربا من ضروب البوح و الإفضاء، إذ تتحدث الشخصية الروائية نفسها عما يعتمل داخل نفس الروائي و تنتقل الكثير من أفكاره و أيديولوجيته إن «اللاز» لا تبدو لنا سردا للأحداث و إنما هي قصة خطاب يتوالد من نفسه ومن نفس ذات الروائي و قناعاته. ولئن جهد الروائي في محور آثار أقدامه، وعمل على إخفاء الملامح و الأسماء و تكلف الإيغال في الإبهام حتى لا يكتشف أمره و تضبطه سلطة النقد متلبسا ، فان بعض فلتات اللسان تورطه من حيث لا يدري فقد جاء في إحدى حواراته قوله « توجهي الإيديولوجي داخل جبهة التحرير طرح علي هذا الموضوع ،شخصية "زيدان" هي فعلا موجودة هو العيد العمراني في باتنة... وجد كمناضل و ذبح كما ذبح المسيح كان مخلصا لكن المفكرين العلميين أرسل بومدين من يبحث عن زيدان فوجد إن الظاهرة قد حصلت صدقني باني تعرضت إلى مصير زيدان و نجوت منه »(بوشوشة 1998 ص 19)

فالإبداع الحقيقي ليس ذلك الذي يلتصق بالواقع و يسعى إلى تقديم صورة له تسعى إن تكون متطابقة معه ، وإنما الإبداع هو ما ينطلق من الواقع ثم يرتقي به إلى مدارج الفن فيطوره و يبلوره ثم يخرج به في صورة مثلى بعيدا عن النقل الفج للواقع .

أن الجرأة في الطرح ليست سمة عارضة في أعمال الطاهر وطار فقد تبدت من قبل في « الشهداء يعودون هذا الأسبوع » كما ظهرت جلية في الأعمال التي تلت رواية «اللاز» و قد تركزت جل أعماله حول موضوع الثورة بكل ما فيها من أشواك يحرص الجميع على النجاة من وخزها إثارا للسلامة أو تملقا للسلطة، إلا أن "وطار" و باقتدار فني بارع تمكن من طرق هذا الموضوع و تشريحه بعيدا عن روح التقديس الزائف، كما تناول المسألة العقدية بالنقد رغم أنها تتربع على ثالوث المحرمات.

إن رواية "اللاز" تستثير فينا قراءة نقدية لذاكرة طالما أسكتها الخطاب الرسمي، و التعبير عما ظل مكبوتا لسنوات ليس مجرد عملية تذكرو لما كان، و إنما هو نوع من التحدي لمشروع نهضة فاشل، حيث قامت الدولة الوطنية بتحويل ممارسات السلطة الاستعمارية لتقوم بها هي نفسها و ذلك بتحالف ظاهر مع الطبقة الإقطاعية و نخبة من المثقفين الانتهازيين الذين زكوا هذا الانحراف

4. الهوية والأسئلة الصعبة:

ما من شك في أن كل أمة من الأمم لها هوية تتميز بها بين سائر أمم الأرض، سواء أكانت عارفة بهويتها هذه، واعية بها، مدركة لها أم كانت جاهلة بها. وغالبا ما يتم التعامل مع كلمة «الهوية» على أنها كلمة ذات حدود واضحة و بسيطة، غير أن تلك البساطة المتوهمة تساهم في تعقيد الفهم أحيانا. فالهوية كما تعرفها المعاجم الحديثة هي حقيقة الشيء، أو الشخص، المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره". (المنجد، 1968، ص 1129) ومن هنا يمكن القول أن هوية أية أمة من الأمم هي «القدر الثابت، والجوهري، والمشارك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية، طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى» (عبد العزيز، 2004، ص 46)

تلعب الهوية على هذا الأساس دورا بالغ الأهمية في تركيز مفهوم الأنثا في مقابل الآخر حيث يتحدد على أساسها نوع الوجود الإنساني و مظهره و طبيعته ومستقبله، فمثلا هناك عدة عوامل تاريخية محلية وكونية ساهمت في بلورة ثوابت معينة للهوية الجزائرية تتمثل في ثلاثة محددات أساسية وهي الدين الإسلامي واللغة العربية والعرق.

غير أن العقيدة الماركسية تجعل الإيديولوجية مقدمة على كل هذه الثوابت مجتمعة، أي أنها تنتقل من الانتماءات الأولية المميزة للجماعة البشرية على أساس روابط الدم والدين والثقافة واللغة والأرض إلى انتماءات حرة تنعدم فيها الحدود والثوابت وترتبط بخيارات الأشخاص وقناعاتهم لا غير. وبناء على ذلك وفي إطار إعادة قراءة التاريخ تطرح الرواية مسألة الهوية ضمن السياق الأيديولوجي الذي يؤسس له الكاتب في الرواية فالهوية الجزائرية من هذا المنظور تشكلت من أطياف متعددة فلا يمكن أن تستند لمرجعية واحدة، والكاتب وهو يشتغل على الإطار التاريخي يرى بأن جزائر الاستقلال هي تشكيل متعدد من عدة هويات بما في ذلك الهوية الأوربية، وعليه فإن المناضلين الشيوعيين الأوربيين الذين ساهموا في ثورة التحرير هم نسيج مما سيكون عليه حال البلاد المستقلة فهذه الرؤية التي يطرحها الكاتب لمسألة الهوية تتماشى مع الرؤية الماركسية التي تنظر إلى مسألة المواطنة والهوية ليس بناء على أسس دينية أو عرقية وإنما بناء على أسس إنسانية بحتة.

إن الفراغ المعرفي المهيول في هذا التفسير للهوية كبير جدا؛ لأنه يعاني من فقدان التواصل مع البنية العقدية التي تعد اللبنة الأولى في بناء الهوية، وإذا كان الآخر قد شكل هويته على الرؤية العلمانية بوصفها إطارا للهوية المجتمعية، فإن ذلك لا ينبغي بأي حال أن يجعلنا نحذو حذوه فإنما تختلف الشعوب و تتمايز الأقوام بهويتها. إن تكريس مفهوم الهوية على هذا النحو من الفهم لا هدف له سوى تدمير فكرة وجود الأمة الواحدة في وعي الإنسان الجزائري مما يزعزع شعوره بحقيقة

الانتماء لها ،فلكل هوية خصوصيتها التي تجعل منها أشبه بالبصمة غير القابلة للتكرار.

الخاتمة:

لقد حاول الروائي الطاهر وطار إعادة قراءة التاريخ في حدود رؤيته الخاصة انطلاقا من انتقائية عناصره التي تقوم على مبدأ الاختيار محاولا في ضوء ذلك الانفتاح على مقتضيات عصره ومرحلته، حيث جسد من خلال التاريخي أهم الإشكاليات السياسية والاجتماعية التي عرفت الجزائر في مرحلة السبعينيات وهي المرحلة التي زامت كتابة هذه الرواية، فالرواية التاريخية مهما حاولت التوغل في الماضي تظل على صلة وثيقة بالحاضر ولا يمكنها التخلص منه وعلى العموم فإن الطاهر وطار نجح في إثارة الانتباه إلى قضية تاريخية حساسة، وهي قضية صراع الأجنحة داخل الثورة التحريرية، وقد وظف كل الإمكانيات المتاحة ليسوق المتلقي إلى قبول فكرته الرافضة لهيمنة الرأي الواحد داخل جبهة التحرير الوطني.

قدم الطاهر وطار للقراء قراءة ثانية للتاريخ تجمع بين الواقع و الخيال والإمتاع في آن واحد تجاوز فيها القراءة الكلاسيكية المعتمدة على عصر معين أو شخصية تاريخية بذاتها ،حيث ينتقل التاريخي من مجرد كونه حدثا إلى كونه بنية في سياق العمل يريد خلقه تارة ، ويسائله تارة ويحاكمه تارة أخرى و لا يعود به إلى الواقع التاريخي بقدر ما يعود به إلى الواقع المعاصر و مساءلته على الدوام .تعرض الرواية على القارئ تاريخه ولكنها في الآن ذاته تشككه في هذا التاريخ و تضع له بديلا عنه وهو التاريخ المجهول الذي غيبته السلطة و أسقطته كتب التاريخ ،وهو ما يسوغ لنا قبوله من منظور التشكيك ومن منظور الخلق الإبداعي الذي يدفعنا للتفاعل معه.

يبدو أن الروائي لا يهتم كثيرا بجماليات التعبير السردى قدر اهتمامه بالرسالة التي تحمل الرواية قدرا كبيرا منها ، ولا شك أن الوظيفة الفكرية والسياسية و الإيديولوجية التي تضطلع بها رواية «اللاز» تضعها في مكانة مميزة بحيث لا يمكن محاكمتها فنيا و جماليا على أساس نظريات السرد الحديثة بل النظر إلى البعد الوظيفي الذي يسعى أساسا إلى بلوغه من أجل إحداث الأثر المنشود في المتلقي .

ومن نافلة القول إن الإنصاف يقتضينا ألا نرى في هذا المنحى الذي ذهب إليه الروائي ما يعيب فالرجل ضل طوال عمره مخلصا للمبادئ الاشتراكية ومن الطبيعي أن يجيء عمله انعكاسا لتلك المبادئ التي آمن بها و ظل طوال حياته مبشرا بها و مدافعا عنها .

كتب أستاذ امريكي من جامعة هارفارد ترجم رواية «الزلال» إلى الطاهر وطار يقول «لا نستطيع أن نفهم ما يحدث في الجزائر حاليا إذا لم نقرأ هذه الرواية» (محمد حسين 2014 ص 74)

هذا الحكم يحمل دلالة لها أهميتها و مغزاها الكبير بالنسبة لرواية «اللاز» فهي بالنسبة لكثير من المثقفين أهم بكثير من الوثائق التاريخية التي كتبت تلك الفترة .

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد زياد محبك: دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة، دار علاء الدين للنشر - سوريا، ط1، 2001.
- 2- ألبر كامبي، أسطورة سيزيف، تر، سامي الدروبي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1968.
- 3- بوشوشة بن جمعة، مباحث في رواية المغرب العربي، منشورات سعيديان، سوسة، تونس، ط1، 1996.
- 4- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر والإشهار، تونس، ط1، 1999.
- 5- سامية اسعد: عندما يكتب الروائي التاريخ، مجلة فصول، ع66 سنة 2005
- 6- شعيب حليفي: التخييل والمرجع (سيرورة الخطاب) مجلة فصول ع 66 مارس 2005.
- 7- الطاهر وطار: اللاز، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- 8- عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ليبيا، ط1، 2010
- 9- عبد العزيز بن عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2004.
- 10- عمار زعموش: قراءة في الرواية الجزائرية، أعمال الملتقى الوطني الثاني "الأدب في ميزان النقد، 12 - 11 - 10 ماي 1993، المطبعة المركزية عنابة.
- 11- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2004.
- 12- محمد بن رجب: حوار مع الطاهر وطار، جريدة الصباح التونسية، 17/04/1984.
- 13- محمد حسين طليبي: الطاهر وطار، نضال في كل الاتجاهات، دار الصدى للصحافة و النشر و التوزيع ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط1، 2001.
- 14- مخلوف عامر، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، ع218 سبتمبر 1999.
- 15- واسيني الأعرج: الطاهر وطار: تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، د. ط.
- 16- المنجد الأجمدي، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط2، 1968.
- 17- تأليف جماعي، المحكي الروائي العربي، أسئلة الذات والمجتمع، تقدم السعيد بوطاجين، الألفية للنشر والتوزيع، قسنطينة. الجزائر، ط1، 2014.